

دروس من تاريخ البلقان:

الإسلام يحقق السلام والأمن، والقومية تجلب الإبادة الجماعية والدمار

(مترجم)

على الرغم من صغر حجمها، كانت منطقة البلقان طوال تاريخها ساحة للصراعات والحروب الوحشية والهجرة الجماعية. ربما لم تكن هناك منطقة أخرى في العالم مثل هذه المنطقة التي أصبحت نقطة تحول تاريخية ونقطة صعود وهلاك لكثير من الدول والقبائل والأعراق والإمبراطوريات. هذه البلاد وشعوبها، التي لم تشهد شيئاً سوى إراقة الدماء والاستغلال وانعدام الأمن لقرون، أتت أخيراً لتذوق الرفاهية والسلام والتنمية لما يقرب من 600 عام من وصول الإسلام. لقد بنت صيغة التكامل الفريدة للإسلام فسيفساء ملونة ومبهجة وحيوية من مختلف اللغات والأعراق والقبائل والأديان. ولكن عندما عادت شعوب البلقان مرة أخرى إلى القومية وأداروا ظهورهم لنمط عيش الإسلام، عادوا إلى الاضطرابات والتهميش والعنصرية وحملات الاستيعاب، وإلى مسلخ الحروب الدموية والإبادة الجماعية.

لم تكن حرب البوسنة ولا سيما إبادة سربرينيتشا قبل 25 سنة أول إبادة جماعية بعد هدم دولة الخلافة. حتى إن نظرة خاطفة ستكشف لنا عن الخسائر والآلام التي عانينا منها كأمة إسلامية: الاستيعاب القسري والطرده والقتل الجماعي للمسلمين في بلغاريا من 1944-1989م، والتطهير العرقي في عام 1989م. الإبادة الجماعية والهجرة القسرية لآلاف من ألبان الشام من أجزاء من المنطقة اليونانية الغربية إبيروس إلى ألبانيا في 1944-1945م. ما يسمى عيد الميلاد الدموي في عام 1963م، حيث ذبح 364 مسلحاً مدنياً رجلاً ونساءً وأطفالاً في قبرص. هذه ليست سوى بعض الأمثلة عن الآلام التي عانينا منها. إلى جانب حقيقة أن تاريخ البلقان يحمل دروساً لنا، فهو أيضاً قصة نجاح تطبيق نظام الحكم الإسلامي. حالياً يتم وصف منطقة البلقان كمناطق تضم البوسنة والهرسك، كرواتيا، صربيا، كوسوفو، سلوفينيا، ألبانيا، مقدونيا، الجبل الأسود، بلغاريا، رومانيا، اليونان وتراقيا.

بدأت الفتوحات الأولى في البلقان من خلال جيوش السلطان أورهان الأول، الذي خدم الخلافة العباسية في عام 1352م، عندما حصلت جيوشه على قلعة تريمبي (شيمي) في بلغاريا. منذ ذلك الحين، من 1352م إلى منتصف القرن السادس عشر الميلادي، أصبحت البلقان تحت سيطرة الإسلام من خلال الحكم العثماني. ومع ذلك، لم يتم غزو البلقان من خلال السيف كما يدعى بشكل عام. خاضت الجيوش العثمانية في دولة الخلافة معارك ضد القوى الإقطاعية المحلية والصلبيين للكنيسة الكاثوليكية، ولكن فتوحات شعوب المنطقة تجسدت من خلال "سياسة الاستمالة" وليس من خلال الحروب. وبسبب هذه السياسة، تمتع البلقان بالهدوء الحقيقي والأمن والسلامة طوال تاريخهم. وهذه السياسة هي التي دفعت ملايين الناس، حتى القبائل كلها، إلى اعتناق الإسلام طواعية خلال القرون التالية.

المعنى المعجمي للاستمالة هو "سحر وجذب وكسب القلوب". في السجلات العثمانية، تم استخدام الكلمة بمعنى "حراسة الناس وخاصة غير المسلمين منهم، وإظهار التسامح الخاص واللفظ في التعامل معهم". وتتمثل المبادئ الرئيسية لـ "سياسة الاستمالة" العثمانية في المعاملة الجيدة، وحماية سكان المناطق المفتوحة، والدفاع عن حياتهم وثروتهم ضد الأعداء، ومنحهم الحرية في شؤونهم الدينية، وإتاحة سهولة في القضايا الضريبية. هذه السياسة هي في الواقع تنفيذ البيان القرآني ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ في سورة التوبة الآية 60، مما يعني "جمع القلوب معاً [للإسلام]". فقد تم تطوير البلقان بشكل

رئيسي من خلال هذه السياسة الحميدة لحماية السكان النصارى المحليين، وضمان حقوقهم، ومنحهم الحرية في معتقداتهم الدينية، وحتى الإعفاءات من الضرائب. ونتيجة لذلك، اعتبر الرعايا غير المسلمين العثمانيين منقذاً لهم. وبالتالي، كانت "سياسة الاستمالة" أحد العوامل الرئيسية التي ساعدت الإسلام في الحصول على السلطة والحفاظ عليها على البلقان لقرون. إحدى السمات الرئيسية لتاريخ البوسنة هي أنه في ظل الحكم الإسلامي، اختار جزء كبير من سكانها التحول إلى الإسلام. كما انتهت الاشتباكات بين مختلف المعتقدات النصرانية تحت الحكم الإسلامي. علاوة على ذلك، حتى واحدة من أكثر الطوائف النصرانية الراديكالية، البوجوميلس، تحولت إلى الإسلام، لتشكيل مجتمع مسلم من العرق السلافي مع اللغة الصربية الكرواتية.

تثبت السجلات التاريخية أن الأشخاص غير الأتراك وغير المسلمين في البلقان عاشوا أكثر فتراتهم سلاماً وحرية وسهولة في ظل الحكم الإسلامي. موضحة أن السمة الأكثر تميزاً لنظام الدولة العثمانية هي "نهجها المتسامح تجاه رعاياها"؛ ذكر المؤرخ الفرنسي روبرت مانتران في كتابه، "تاريخ الإمبراطورية العثمانية": "خاصة في المناطق النصرانية، تم الحفاظ على اللغات المحلية والأديان وحتى الكوادر السياسية والمجتمعية؛ وتم عقد اتفاقيات مع الكنائس ورجال الدين، ومنحهم حتى امتيازات ضريبية. إلى جانب وضع حد للنزاعات/ المعارك بين النصارى في المنطقة، ولا سيما تسامح الدولة العثمانية ونهجها تجاه أعضاء البوجوميلية، مما وضع الأسس التي اعتنق عليها مؤمنو هذا الدين فيما بعد الإسلام. لم تكن هناك أي محاولة لاستيعاب أهل المناطق التي سيطروا عليها، ولم يتبعوا سياسة التسيير أو الأسلمة القسرية. إذا لم يكن الأمر كذلك، فسيكون من المستحيل شرح كيف كانت اللغة اليونانية والبلغارية والصربية وغيرها، والطوائف النصرانية والشعوب المحلية قادرة على الحفاظ على ثقافتها حتى أيامنا".

وأشار أحد المعلقين الغربيين إلى أن اللغة "السلافية" كانت على الأرجح اللغة الرسمية الثالثة في الدولة العثمانية عام 1595م. وهي عائلة بوسنية بارزة جداً، وسوكولو هي عائلة بوسنية بارزة من أصل عرقي صربي. كان أفراد العائلة البارزون، مثل الوزير الأعظم سوكولو محمد باشا، فرهاد باشا سوكولوفيتش، من كبار المسؤولين في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر. خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان للدولة العثمانية 8 وزراء بوسنيين كبار.

عند الإشارة إلى نجاح الإسلام، يؤكد المؤرخون بشكل متكرر على الهيكل التنظيمي للدولة العثمانية. تقول المؤرخة البلغارية ماريا تودوروفا، على سبيل المثال، في كتابها "تحليل البلقان": "هناك العديد من العوامل التي ساهمت في النجاح العثماني في إرساء السلام والهدوء في البلقان. والأهم من ذلك، أن الدولة العثمانية لديها قوة الهيكل التنظيمي: لقد كان هذا الهيكل القوي محسوساً في كل مجال من مجالات الوجود العثماني، ولم يكن هذا الهيكل ظالماً، بل على العكس، تبنى التسامح والرحمة كمبدأ، لذلك كانت الدولة العثمانية دائماً محترمة تجاه القيم المحلية، وكانت دائماً تعتبر الإنسان قيماً".

العامل الذي شكل وسمح بالتنفيذ الفعال لسياسة التسامح هذه هو هيكل الدولة القائم على القرآن والسنة. لقد كان الولاء والالتزام بالقرآن والسنة هو الذي مكن الخلافة العثمانية من الحكم بشكل ملائم على البلقان لما يقرب من 600 عام. في الإسلام، يتم غزو القلوب من خلال السياسة. ومن أجل إزالة أي عقبات تعوق هذه الفتوحات، يأمر الإسلام بالجهاد. وهكذا حققت الجيوش الإسلامية انتصارات مجيدة في معركة كوسوفو الأولى عام 1389م، وحملة فارنا عام 1444م، ومعركة كوسوفو الثانية عام 1448م وانتصارات أخرى لا حصر لها ضد الصليبيين. وكل واحد منها محفور في

ذاكرة العالم، وعزز هيمنة الإسلام على البلقان. لقد كان هؤلاء الجهاديون هم الذين منعوا الغرب من الإسراع بمساعدة القسطنطينية، وهو الذي فتح الطريق لفتحها. أوروبا النصرانية لم ولن تنسى هذه الهزائم المدمرة حتى نهاية العالم. وهذه الكراهية المنقوشة في قلوب وعقول الكفار الصرب بسبب هذه الهزائم هي السبب الكامن وراء حرب البوسنة ومذبحة سربرينيتشا.

ومع ذلك، أدى التدهور الفكري في الخلافة العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى تدهور منهجي تسبب في عدم استقرار مجتمعي واقتصادي. إلى جانب ذلك، انتهت معركة فيينا عام 1683م بهزيمة الجيش العثماني، وشكلت نقطة تحول في الحروب بين الإسلام والصليبيين. هذه الهزيمة شجعت الأعداء. بالفعل في عام 1699م، وجدت الدولة العثمانية نفسها مجبرة على التوقيع على معاهدة كارلويتز. بتوقيع هذه المعاهدة مع الرابطة المقدسة عام 1684م، ائتلاف الإمبراطورية الرومانية المقدسة، الكومنولث البولندي الليتواني، جمهورية البندقية، وروسيا، تخلت عن المجر إلى ملكية هابسبورغ. تعتبر هذه المعاهدة بداية فترة تراجعها.

أما الصليبيون فبالنسبة لهم كان الطريق واضحاً ومفتوحاً. كان المسلمون قابلين للانتقاد من خلال الأفكار السامة. لذا طوروا صيغة بسيطة للغاية: نشر القومية بين النصارى، وتشجيع الانتفاضات ضد الدولة العثمانية، ثم العمل والضغط على الدولة العثمانية للإصلاحات، حيث تمنح المزيد من الحقوق لهم. ستؤدي هذه الإصلاحات أولاً إلى الاستقلال الذاتي، وأخيراً حركات الاستقلال.

لقد نجحت هذه الصيغة...

على سبيل المثال: المشاكل الزراعية في البوسنة، والتي حدثت بسبب الممارسات غير السليمة وحتى غير الإسلامية في العلاقات الزراعية بين الملاك والفلاحين، كانت واحدة من القضايا التي خففت بذر البذور القومية بين شعب البوسنة. ثم تم حل هذه المشكلة من خلال تدخل اسم كانون (مرسوم) الخليفة في عام 1859م. ومع ذلك، أدى الصرب العرقيون الذين لم يكتفوا بالظروف بعدد من انتفاضات الفلاحين ضد الإمبراطورية العثمانية. خاصة انتفاضة الهرسك في عام 1875م كانت ذات دوافع سياسية قوية وأدت إلى تدخل القوى الأجنبية. وهكذا في معاهدة برلين عام 1878م، تم تسليم البوسنة والهرسك إلى النمسا-المجر. على الرغم من مقاومة مسلمي البوسنة، فقد أهلكت النمسا والمجر البوسنة عام 1878م. وهكذا انتهى الحكم العثماني على البوسنة والهرسك رسمياً، وأعلنت البوسنة رسمياً من أراضي النمسا والمجر عام 1908م.

وبدعم من الغرب، بدأ المزيد والمزيد من المجتمعات غير المسلمة تحت حماية الخلافة العثمانية بأعمال شعب، واتهموا الدولة بالقمع والمعاملة غير المتساوية والمطالبة بحقوق جديدة. وأخيراً من 1839-1876م، أدخلت الدولة العثمانية إصلاحات التنظيمات بالتوازي مع الإصلاحات الأخرى. منحت هذه الإصلاحات الأشخاص غير المسلمين في الدولة حقوقاً جديدة متساوية مثل المسلمين، ليصبحوا مسؤولين حكوميين، والالتحاق بالمدارس العسكرية، ودفع نفس الضرائب مثل المسلمين ورفع الجزية.

كما هو مخطط، بعد هذه الإصلاحات عزز الغرب حركات الاستقلال. وأخيراً، في عام 1832م، تم الاعتراف باليونان كدولة مستقلة، وفي 1859م أعلنت مولدافيا والاشيا نفسها إمارات رومانية مستقلة. بعد الحرب الروسية التركية في 1877-1878م، مزقت معاهدة برلين غالبية الأراضي العثمانية. بدعم من روسيا، التي كان هدفها تأسيس السلافية عبر

البلقان، وأعلنت صربيا أخيراً استقلالها في عام 1878م، تلتها بلغاريا في عام 1908م. 1908 هو أيضاً إبادة البوسنة والهرسك من خلال النمسا والمجر الشرعية على معاهدة برلين. حروب البلقان التي بدأت عام 1912م، تلاها مؤتمر لندن عام 1921م، ثم انتهت سلطة الخلافة وهيمنتها على البلقان.

منذ ذلك الحين، عاد البلقان مرة أخرى إلى الاضطهاد والإقطاعية في القرن ما قبل الرابع عشر. مرة أخرى، تم إخضاع البلقان لحروب المصالح بين الإمبراطوريات والممالك. ومنذ ذلك الحين شهدوا الاضطهاد في ظل الأيديولوجيات العنصرية والمعادية للدين والاشتراكية والشيوعية وغيرها من صنع الإنسان في الدول القومية. أهل البلقان مرة أخرى سرق منهم أرضهم ولغتهم ودياناتهم وحياتهم وممتلكاتهم وكرامتهم. الاضطهاد والاضطهاد الشيوعي في رومانيا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ضرب الناس من جميع الأديان والدول. إلى جانب المسلمين، تم إخضاع اليهود والنصارى وغيرهم من المؤمنين في البلقان لعمليات الإبادة الجماعية والتشريد والاستغلال والتعذيب والسجن بموجب أيديولوجيات مختلفة. بعد القضاء على الهيمنة الموحدة للإسلام، لم تقدم أي أيديولوجية أو نظام أو منظمة أو مؤسسة دولية أخرى، مرة أخرى، السلام والوحدة والتضامن والحماية والسلامة والتنمية والرفاهية لشعوب البلقان. على العكس من ذلك، كان ذلك في نهاية القرن العشرين، خلال فترة تباهى فيها الغرب بكونه على قمة الحضارة، وأعلن نفسه كحارس لحقوق الإنسان والمرأة والطفل، وراعي حرية الاعتقاد والدين، تم تنفيذ واحدة من أبشع الإبادة الجماعية في تاريخ البشرية... نفذت في قلب أوروبا.

نعم، نحن المسلمين مررنا وما زلنا نشهد كل هذه الفظائع. ومع ذلك، كما ورد في بداية هذا المقال: إن تاريخ البلقان درس كبير لنا. بالإضافة إلى هذه الدروس من ذوي الخبرة، لدينا الوحي لرسول الله ﷺ. أولئك الذين تمسكوا بهذا الوحي تمتعوا بالنجاح عبر التاريخ.

إن الإسلام لا يجبر أحداً أن يصبح مسلماً. لا يعتبر الإسلام أي شخص متفوقاً بناءً على جنسه أو عرقه أو ثروته. عرض الإسلام ووعده للبشرية واضح ونهائي: أولاً؛ السعادة في الحياة الدنيوية لكل إنسان يبحث عن ملجأ تحت مظلة النظام الإسلامي. ثانياً؛ حمل جاذبية الحياة الدنيوية إلى جحيم لا نهاية له في الآخرة من خلال اعتناق الإسلام بحرية واستناداً إلى أدلة عقلانية. هذه ليست عروض وعود المسلمين. لا، إنها وعد الله تعالى وبشرى رسول الله ﷺ. الله سبحانه وتعالى سيحقق بوعده، وبشرى رسول الله ﷺ لا تزال تتحقق واحدة تلو الأخرى.

كتبته للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

زهرة مالك

عضو المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير